ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 10، العدد: 01 (2025) ص : 172- 183

المحسنات المعنوية وأثرها البلاغي في كتاب "المثل السائر"

قراءة في شواهد المتنبي

Semantic Beautifications and Their Rhetorical Impact in the Book Al-Mathal Al-Sa'ir

A Study of Al-Mutanabbi's Examples

نصر الدين شيحا *

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)

chihanasro@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2025/02/19
تاريخ القبول:
2025/05/24
تاريخ النشر:
2025/06/02

الكلمات المفتاحية:
- ✓ االمحسنات المعنوية
- ✓ ابن الأثير
- ✓ البلاغة

تعددت الآليات التي انتهجها النقاد في تحليل النصوص الأدبية، وذلك لأجل فهمها وإبراز مكنوناتها ومن بين هذه الآليات نجد البلاغة العربية التي كان لها نصيب كبير في الحركة النقدية، فهي إحدى أدوات النقد التي اعتمد عليها النقاد القدامى في تحليلهم النصوص الأدبية، ومن بين هؤلاء النقاد نجد ابن الأثير صاحب كتاب (المثل السائر) الذي يحتوي على جملة من الآراء النقدية والبلاغية، التي تدل على كثرة اطلاعه والثقافة الغزيرة التي يمتلكها صاحب هذا الكتاب.

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز الاتجاه البلاغي الذي كان سمة بارزة في كتاب ابن الأثير وهذا عند نقده لشواهد المتنبي الذي كان شعره من بين النصوص الأكثر حضورا ودراسة عنده، فنقف عند المحسنات المعنوية التي رصدها ابن الأثير في شعر المتنبي لنبين مدى نجاعة هذه الآليات البلاغية في فهم النص الأدبي وإعادة بنائه وقراءته.

Article info

Received
19/02/2025
Accepted
24/05/2025
Published
02/06/2025

Keywords:
- ✓ *Semantic Beautifications*
- ✓ *Ibn al-Athir's*

Abstract :

Critics have employed various mechanisms in analyzing literary texts to understand them and uncover their hidden meanings. Among these mechanisms, Arabic rhetoric has played a significant role in literary criticism, serving as one of the key tools used by early critics in their textual analyses. One of these critics is Ibn al-Athir, the author of Al-Mathal Al-Sa'ir, a book that presents a collection of rhetorical and critical views, reflecting his vast knowledge and extensive intellectual background.

This study aims to highlight the rhetorical approach that prominently characterizes Ibn al-Athir's work, particularly in his critique of Al-Mutanabbi's poetry, which was among the most frequently analyzed and studied texts in his book. We focus on the rhetorical embellishments (al-muḥassināt al-maʿnawiyya) identified by Ibn al-Athir in Al-Mutanabbi's poetry to demonstrate the effectiveness of these rhetorical devices in understanding

* المؤلف المرسل

✓ *Rhetorical*	

1. مقدمة

شهد التراث النقدي العربي القديم تطورا وتنوعا في مختلف مراحله، والمطلع عليه يدرك طبيعة تعدد الأدوات و الآليات التي انتهجها النقاد لتحليل النصوص الأدبية، و فهمها و إبراز مكنوناتها، فقد كانت الآليات المستخدمة متعددة – رغم اختلاف مبادئها– إلاّ أنّ استخدامها كان موجها نحو موضوع واحد و هدف واحد وهو قراءة النصوص وفهمها، ومنذ عصر التأليف يمكن القول أنّ هذا التراث النقدي أسهمت فيه مدرستان مختلفتان : مدرسة النحاة ومدرسة البلاغيين – وهما الأكثر حضورا في الأدب العربي، و هما من أقدم البيئات التي كانت لها عناية بالنصوص الأدبية، و لعل أصحاب هذه البيئات – العلماء – باللغة جمعا و حفظا و دراسة يؤكد صلة تلك النصوص الأدبية باللغة، فتلك النصوص كانت بالنسبة لهم حافظة للغتهم و مجدهم و آثارهم، لذلك كانت اللغة بمختلف علومها هي الآلية المستخدمة لفهم تلك النصوص. ومن هنا ارتأيت أن أعنون مقالتي هذه بـ: المحسنات المعنوية وأثرها البلاغي في كتاب "المثل السائر "قراءة في شواهد المتنبي.

وتهدف هذه الدراسة إلى ابراز الاتجاه البلاغي الذي كان سمة بارزة في كتاب المثل السائر في نقد ابن الأثير لشعر المتنبي والذي كان شعره من بين النصوص الأكثر حضورا ودراسة عنده، وطبعا هذا كان اختيار منه لأنه من الشعراء المتأخرين ولما يحفل به شعره من معاني دقيقة، كما اعتنى بشعر أبي تمام والبحتري ويقر "أن هؤلاء الثلاثة هم أرباب الشعر، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء. (ابن الأثير، 1985، ص: 226/3). وكانت المحسنات المعنوية أحد أقسام كتابه التي رصدها ابن الأثير في شعر المتنبي فنقف عندها لنبين مدى نجاعة هذه الآليات البلاغية في فهم النص الأدبي وإعادة بنائه وقراءته.

وفي بحثنا هذا نحاول الإجابة عن جملة من الأسئلة المتمثلة في: ما هي أهم المحسنات المعنوية التي استخدمها ابن الأثير في تحليل شواهد المتنبي في كتابه؟ وما مدى نجاعة هذه الآليات البلاغية في فهم النص الأدبي، وما طبيعة الصلة بين النصوص الأدبية والآليات التي تنقد بها؟

واستدعت طبيعة الموضوع تغليب الجانب التطبيقي في البحث، فجاءت هذه الدراسة في مبحثين ومقدمة، تناولت في المبحث الأول نبذة مختصرة عن حياة ضياء الدين ابن الأثير وأهم مؤلفاته الأدبية، ثم ذكرت في فقرة موجزة مضمون كتابه (المثل السائر) وأقسامه، وفي المبحث الثاني التطبيقي نبرز فيه الاتجاه البلاغي في نقد ابن الأثير لشواهد المتنبي الشعرية، فنقف عند المحسنات المعنوية التي رصدها ابن الأثير.

2. تعريف بابن الأثير وكتابه:

1.2. حياته وآثاره:

– نسبه (ابن الأثير، 1985، ص: 27/1). هو نصر الله بن محمد الشيباني، كنيته أبو الفتح، ولقبه ضياء الدين، ويعرف بابن الأثير الجزري، منسوب إلى جزيرة ابن عمر، ويعرف أيضا بابن الأثير الجزري الموصلي، نسبة إلى الموصل، وكانت ولادته سنة 558 هـ. ولد ضياء الدين بالجزيرة ونشأ بها وانتقل مع والده إلى الموصل واشتغل وحصل العلوم وحفظ القرآن وشيئا من الحديث وطرفا من النحو واللغة وعلم المعاني والبيان ولم حصل هذه الأدوات قصد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان شابا فاستوزره لولده الأفضل علي وحسنت حاله عنده (الصفدي، 2000، ص: 24/27).

وضياء الدين هو أحد الإخوة الثلاثة: عز الدين المؤرخ المشهور، صاحب: "الكامل" ومجد الدين صاحب: «النهاية في غريب الحديث والأثر". وقد توفي ابن الأثير ببغداد سنة 637 هـ.

برزت شخصية ابن الأثير في أواخر القرن السادس الهجري، وخلال شطر كبير من القرن السابع، في مرحلة ازدهرت فيها البحوث البيانية وتعددت المناهج البلاغية فقد عاصر السكاكي والقاضي الفاضل وكان قبلهما عبد القاهر الجرجاني والزمخشري.

– آثاره: لابن الأثير مؤلفات أخرى إلى جانب "المثل السائر"، وهي:

الوشي المرقوم، في حل المنظوم.

المعاني المخترعة، في صناعة الإنشاء.

الجامع الكبير، في صناعة المنظوم والمنثور.

ديوان ترسل.

المختار من ديوان الترسل.

2.2. حول الكتاب ومضمونه:

عاش ضياء الدين بن الأثير في ظل الدولة الأيوبية، وشهد الانحدار الأدبي نحو الصنعة والتكلف، وحاول محاربة تدني الذائقة الأدبية لدى جمهور الكتَّاب وأرباب القلم؛ فقدم للمكتبة العربية كتابًا بديعًا في شكله وموضوعه، وتجد في الكتاب ما يدلك على حضور ذهنه وقوة شخصيته، إذ يناقش أراء السابقين ويدلل على صحة ما يسوقه، وهذا ينفي عنه الأخذ بطريقة "وقع الحافر على الحافر"، بل جدَّد وصحح مفاهيم خاطئة، ناهيك بأمثلته الخاصة في مواضع مختلفة من الكتاب.

يتضمن "المثل السائر" البحث عن علم البلاغة، والنقد لصناعة الكاتب والشاعر، وهذا ما يتجلى من خلال العنوان، ويعتبر من المظان الأصلية التي اشتملت على صناعة البيان في التراث العربي، وقد أثنى عليه المراغي:" وهو كتاب فريد في بابه يفوق أنداده وأترابه، جمع فيه فأوعى, ولم يترك شاردة ولا واردة، لهما مساس بالكتابة والقريض إلا ذكرها بشرح واف، يدل على طول باع، وسعة اطلاع، مع قدرة

على النقد، وبديهة حاضرة في إدراك خصائص البلاغة، ومن ثمة اشتمل كتابه على كثير من أبواب تلك الفنون، وطبق عليهما كثيرا من آي الكتاب والسنة النبوية، وتلك منقبة امتاز بها من بين هاتيك المؤلفات في تلك العلوم. (عبد الرحمن، 1998، ص: 10).

وقد أشار القلقشندي في كتابه: "صبح الأعشى" إلى كتاب ابن الأثير بقوله: " أما المتمّمات التي يكمل بها الكاتب، من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوه تحسين الكلام من المعاني والبيان والبديع، فإن فيها كتبا مفردة تكاد تخرج عن الحصر والإحصاء، فاقتضى الحال من المتقدّمين للتصنيف في هذا الفنّ أن قد قصروا تصانيفهم على علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير في «المثل السائر» (القلقشندي، 1914، ص: 365/2).".

وأول ما يلفت النظر في المثل السائر أنه لم يخضع كتابه للتقسيم المعروف آنذاك، خصوصا عند معاصره السكاكي، وهو تقسيم المباحث البلاغية إلى علم البيان وعلم المعاني وعلم البديع، ولعل من أبرز ملامح المنهج البلاغي عند ابن الأثير، ذلك المزج بين الشواهد والتحليل، إذ تتمظهر " جدة منهج ابن الأثير في شخصيته المميزة واستقلال رأيه، ثم إن له جانبا مهما في دراسة البلاغة، فهو يمزج القاعدة بالتطبيق وينقد ويوازن ويختار وهذا هو المجال الذي تزدهر فيه البحوث البلاغية (صوفية، 1994، ص: 189).

3. المحسنات البلاغية وأثرها البلاغي:

احتوى كتاب ابن الأثير مجموعة من النصوص الأدبية المختلفة، جمع فيها بين المنثور والمنظوم، من كلام الله سبحانه وتعالى، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلام البلغاء والشعراء وخاصة أبو تمام والمتنبي والبحتري وعن سبب اختيارهم دون غيرهم من الشعراء يقول:" أني وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحل إلا وعرضته على نظري، فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة، ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الأغراض والمقاصد، ولم أجد أحسن تهذيبا للألفاظ من أبي عبادة، ولا أنقش ديباجة، ولا أبهج سبكا، فاخترت حينئذ دواوينهم، لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ"(صوفية، 1994، ص: 189).

قد ركز المؤلف في نقده البلاغي على المحسنات اللفظية والمعنوية، ونقف في هذا البحث عند بعض المحسنات المعنوية التي رصدها ابن الأثير في شعر المتنبي وأهم آرائه النقدية حولها، مبرزين الجانب البلاغي والجمالي وطريقة قراءاتها وتحليله.

1.3. في الحكم على المعاني

صاغ ابن الأثير هذا المبحث في كتابه محاولا الكشف والإحاطة ببعض الأساليب والمعاني المختلفة. ويقر أن الحكم على المعاني يرجع أكثره إلى **التأويل**، الذي عرفه بقوله "أنه أحد قسمي التفسير، وذاك أنه رجوع عن ظاهر اللفظ، وهو مشتق من الأول، وهو الرجوع، يقال: آل يؤل، إذا رجع. وعلى هذا، فإن التأويل خاص والتفسير عام، فكل تأويل تفسير، وليس كل تفسير تأويلا"(ابن الأثير، 1985، ص: 63/1). ثم يقسم التأويل إلى ثلاثة أقسام:

إما أن يفهم منه شيء واحد لا يحتمل غيره، وإما أن يفهم منه الشيء وغيره، وتلك الغيرية: إما أن تكون ضدا، أو لا تكون ضدا، والذي يهمنا في هذا الفصل هو القسم الثاني لما فيه من شواهد شعرية للمتنبي، ويعد هذا الضرب من التأويل في نظر ضياء الدين من أظرف التأويلات المعنوية؛ لأن دلالة اللفظ على المعنى وضده أغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضده (ابن الأثير، 1985، ص: 64/1).

وقد انتبه علماء البلاغة قبله لمثل هذه التراكيب فيسمى عندهم الإبهام أو التوجيه وهو عند السكاكي:" إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين (السكاكي، 1987، ص: 427). ويدخل في التوجيه فن معنوي يطلق عليه الهجاء في معرض المدح" وهو أن يهجو بألفاظ ظاهرها المدح وباطنها القدح"(التفتازاني، 1999، ص: 320/2). ومنه أيضا الهزل في معرض الجد. وكل هذه الأساليب تحمل المعنى وضده. ومثل له ابن الأثير بقول أبي الطيب في قصيدة يمدح بها كافورا:

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

يقول ابن الأثير:" وهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان، أحدهما: أن المنعم عليه يحسد المنعم، والآخر: أن المنعم يحسد المنعم عليه (ابن الأثير، 1985، ص: 64/1). ومن المعاني التي تحمل ضدين قول المتنبي أيضا:

فَمَا لَكَ تُعْنَى بِالأَسِنَّةِ وَالقَنَا ... وَجَدُّكَ طَعَّانٌ بِغَيْرِ سِنَانِ

جاء في كتابه: «فإن هذا بالذم أشبه منه بالمدح؛ لأنه يقول: لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك، بل بجد وسعادة، وهذا لا فضل فيه؛ لأن السعادة تنال الخامل والجاهد ومن لا يستحقها، وأكثر ما كان المتنبي يستعمل هذا القسم في قصائده الكافوريات. (ابن الأثير، 1985، ص: 65/1).

وكثيرا ما كان يقصد المتنبي هذا القسم في شعره واستغلها في مدائحه لكافور، فقد كان مضطرا إلى مجاملته لتفادي المكروه إن جابهه بما يكنه من احتقار، فجنح إليه في أماديح ليكون ظاهرها المديح وباطنها الهجاء.

2.3 صحة التقسيم وفساده:

التقسيم الصحيح عند أبي الهلال العسكري هو: أن تقسّم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه؛ فمن ذلك قول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً)، وهذا أحسن تقسيم؛ لأنّ الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع، ليس فيهم ثالث (أبو هلال العسكري، 1952، ص: 341)..

وعرفه صاحب المثل السائر: "هو ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد، وإذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه، ولم يشارك غيره." (ابن الأثير، 1985، ص: 167/3).

وفي هذا المحسن أورد له أمثلة من القرآن والشعر عن صحة التقسيم وحسنه دون ذكر المتنبي، ثم بين فساد التقسيم عند الشعراء ومثل له بقول أبي الطيب المتنبي وهو:

فَافْخَرْ فَإِنَّ النَّاسَ فِيْكَ ثَلاثَةٌ مُسْتَعْظِمٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلٌ

فرأى أن المتنبي أخطأ وأخل بشروط صحة التقسيم حين جمع بين المستعظم والحاسد لأنه في رأيه أن من يستعظم شخصا يكون حاسدا فكأنه أمر واحد، جاء في كتابه: «فإن المستعظم يكون حاسدا، والحاسد يكون مستعظما، ومن شرط التقسيم ألا تتداخل أقسامه بعضها في بعض. (ابن الأثير، 1985، ص: 171/3)."

فاختيار ابن الأثير لهذا الشاهد حول سوء التقسيم لم يكن موفقا، ووجود تداخل بين كلمة الحاسد والمستعظم أمر لا نسلم به إذا كان المعنى الذي يريده المتنبي أن النّاس فِي الممدوح ثلاثة أقسام إِمَّا مستعظم يستعظمك لما يرى من عظمتك أو حاسدا يحسدك على فضلك أو جاهل يجهل قدرك. فلا نرى تداخل بين الكلمات.

3.3. الإفراط:

وهو فن سماه ابن المعتز الافراط في الصنعة (ابن المعتز، 1986، ص: 162).، وسماه قدامة المبالغة، وسماه من بعدهما التبليغ، والناس على تسمية قدامة، وعرفه بقوله: «هو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عندها لأجزأت فلا يقف عندها حتى يزيد في معنى كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده» (ابن أبي الإصبع، 1991، ص: 147).

وأما الإفراط فقد ذمه قوم من أهل هذه الصناعة، وحمده آخرون، والمذهب عند ابن الأثير استعماله، لأن أحسن الشعر أكذبه، بل أصدقه أكذبه، لكنه تتفاوت درجاته، فمنه المستحسن الذي عليه مدار الاستعمال (ابن الأثير، 1985، ص: 193/3)."[1]

واستحسن ابن الأثير هذا المحسن في قول أبي الطيب المتنبي وهو يصف الغبار الذي تثيره الخيل:

عَجَاجَا تَعْثُرُ العِقْبَانُ فِيهِ ... كَأَنَّ الجَوَّ وَعْث أَو خَبَارُ (التبريزي، 2001، ص: 3/24).

فالإفراط يتمثل في وصف الغبار الكثيف الذي تنشره حوافر الخيول حتى تعثر به العقبان وهي تطير في الهواء. وهذا من الإفراط المستحسن عند ابن الأثير. ثم ذكر ابن الأثير بيتا شعريا آخر للمتنبي أعاد فيه المعنى السابق، فقال:

عَقَّدَتْ سَنابِكُها عَلَيْها عِثْيَراً لَوْ تَبْتَغِي عُنْقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَنَا (التبريزي، 2001، ص: 425/4).

وهذا البيت أكثر مبالغة من السابق لأنه يقول: أن الغبار الذي تسببه حوافر الخيول قد يعقد، لكثافته حتى كأنه أرض صلبه، فلو أرادت الجياد أن تسير على هذا الغبار لأمكنها السير.

ودائما في نفس المحسن المعنوي وفي موضع آخر من كتابه قدم المصنف نموذجا آخر للإفراط المستقبح الذي جاء في شعر المتنبي وقارن بينه وبين الإفراط عند أحد شعراء العصر الجاهلي وهو قيس بن الخطيم، يقول المتنبي:

كَأَنَّمَا تَتَلَقَّاهُمْ لِتَسْلُكَهُمْ ... فالطَّعْنُ يَفْتَحُ في الأَجْوَفِ مَا تَسَعُ (المتنبي، 1997، ص: 304/1).

ومعنى هذا البيت أن هذه الخيل تتلقى الروم لتسلك أجسادهم، وتتخذ طرقاً في جسومهم، فطعن فرسانها فيهم يفتح ما يسعهم، ويخرق ما لا يضيق بهم (ابن الإفليلي، 1999، ص: 351/1).

ووازن ابن الأثير بين البيت السابق للمتنبي وقول قيس بن الخطيم:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا

وهذا بيت يحوم في نفس المعنى الذي ذكره المتنبي في البيت السابق، لكن أبا الطيب أكثر غلوا في هذا المعنى، يقول ابن الأثير:" وقيس بن الخطيم، أحسن لأنه قريب من الممكن، فإن الطعنة تنفذ حتى يتبين فيها الضوء، وأما أن يجعل المطعون مسلكا يسلك كما قال أبو الطيب، فإن ذلك مستحيل، ولا يقال فيه بعيد. (ابن الأثير، 1985، ص: 194/3)."

4.3. التجريد:

التجريد عند ابن الأثير هو "إخلاص الخطاب لغيرك، وأنت تريد به نفسك، لا المخاطب نفسه؛ لأن أصله في وضع اللغة من جردت السيف، إذا نزعته من غمده،"(ابن الأثير، 1985، ص: 128/2).

وذكر أبو علي الفارسي كلاما جميلا عن التجريد يبين فيه الوجهة الفكرية وحتى النفسية لهذا الفن البلاغي فقال: «إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا من الإنسان كأنه غيره وهو هو بعينه نحو قولهم: لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ولئن سألته لتسألن به البحر وهو عينه الأسد والبحر لا أن هناك شيئا منفصلا عنه أو متميزا منه» ثم قال «وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره كما قال الأعشى:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وَهَلْ تُطِيقُ وِدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ؟ "(الخطيب القزويني، 1982، ص: 92/2).

والتجريد من أبلغ الفنون البديعية، وابن الأثير أفاض فيه الكلام وبين معالمه أكثر من سابقيه، وربما يرجع ذلك لقرب مفهومه من مفهوم الالتفات عندهم، وأحسب أن كلا من جاء بعده كان ناقلا عنه في مباحث هذا الفن. والنظر عنده في هذا المبحث وصل لغاية تبيين المقاصد البلاغية للتجريد، جاء في كتابه:" وقد تأملته فوجدت له فائدتين: إحداهما أبلغ من الأخرى. (عبد الرحمن، 1998، ص: 431/2).

فالأولى: طلب التوسع في الكلام، فإنه إذا كان ظاهره خطابا لغيرك، وباطنه خطابا لنفسك، فإن ذلك من باب التوسع، وأظن أنه شيء اختصت به اللغة العربية دون غيرها من اللغات.

والفائدة الثانية: وهي الأبلغ، وذاك أنه يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح، أو غيره على نفسه، إذ يكون مخاطبا بها غيره، ليكون أعذر وأبرأ من العهدة، فيما يقوله غير محجور عليه." (ابن الأثير، 1985، ص: 129/2).

وقسم ابن الأثير التجريد إلى قسمين:

أحدهما: تجريد محض. والآخر: تجريد غير محض. وعرف القسم الأول: أن تأتي بكلام هو خطاب لغيرك، وأنت تريد به نفسك"(ابن الأثير، 1985، ص: 129/2). ومثل له بقول أبي الطيب المتنبي (المتنبي، 1997، ص: 276/3).

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيها ولا مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لم يُسْعِدِ الحَالُ

واجْزِ الأَمِيْرَ نُعْمَاهُ فَاجِئَةٌ ... .بِغَيْرِ قَوْلٍ ونُعْمَى النَّاسِ أَقْوَالُ

وهذان البيتان من مطلع قصيدة يمدح بها فاتكا الإخشيدي بمصر، فخاطب نفسه وكأنه يخاطب غيره، يقول: فإن لم يكن لك مال ولا خيل فليسعد نطقك إذ لم تسعد حالك.

وعن الفائدة البلاغية للتجريد في الأبيات السابقة يقول ابن الأثير:" وليس في التجريد المذكور في هذين البيتين ما يدل على وصف النفس، ولا على تزكيتها بالمديح، وإنما هو توسع لا غير"(ابن الأثير، 1985، ص: 131/2)

وقد اكتفى ابن الأثير بالمثال السابق فقط من شعر المتنبي في كلامه عن التجريد، والمتأمل لشعر المتنبي سيجده حافلا بهذا الأسلوب البلاغي وهو أفضل من يمثل هذا النوع في شعره، وأورد بعض الأمثلة للفائدة فمنه قوله:

فَلاَ تُرَجِّ الخَيرَ عِندَ امرِئٍ ... مَرَّتْ يَدُ النَّخَّاسِ في رَأسِهِ

وإِنْ عَرَاكَ الشَّكُّ في نَفسِهِ ... بِحالَةٍ فأنظُرْ إلى جِنسِهِ

يقول، وهو يخاطب نفسه، ويشير إلى كافور: فلا ترج الخير عند متن لئيم محتقر، قد مرت يد النخاس الذي عرض البيع به في ضرب رأسه، وامتهان نفسه (ابن الإفليلي، 1999، ص: 33/2).

ومن التجريد قوله:

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... في طَلْعَةِ الشمس ما يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ(ابن الإفليلي، 1999، ص: 73/2).

ومنه أيضا:

إلى أَيِّ حينٍ أَنتَ في زِيِّ مُحرِمٍ وَحَتّى مَتى في شِقوَةٍ وَإِلى كَمِ

يقول أبو العلاء في شرحه:" يخاطب نفسه وكأنه يخاطب سواه، والشعراء يفعلون ذلك كثيرًا (العزيزي، 2005، ص: 1304).

5.3. في استعمال العام في النفي، والخاص في الإثبات

يقول ابن الأثير في تعريفه لهذا المحسن: "اعلم أنه إذا كان الشيئان أحدهما خاصا والآخر عاما، فإن استعمال العام في حالة النفي أبلغ من استعماله في حالة الإثبات، وكذلك استعمال الخاص في حالة الإثبات أبلغ من استعماله في حالة النفي" (ابن الأثير، 1985، ص: 166/2). ثم يذكر شروط استعماله ويقسمه إلى ثلاثة أضرب من بينها: "الصفات المتعددة فإنه ينبغي أن يبدأ في الذكر بالأدنى مرتبة، ثم بعدها بما هو أعلى منها إلى أن ينتهي إلى آخرها هذا في مقام المدح، فإن كان في مقام الذم عكست القضية "(ابن الأثير، 1985، ص: 166/2).

وبعدها ضرب ابن الأثير أمثلة عن حسن الترتيب والترقي من الأدنى فالأدنى إلى الأعلى والتي مثل لها بأبيات البحتري، ثم أعاب على المتنبي سوء الترتيب في قوله:

يا بدرُ يا بحرُ يا غمامةُ يا ليثُ الشَّرَى يا حمامُ يا رجلُ (المتنبي، 1997، ص: 215/3).

فأما قوله: "يا بدر" فإنه اسم ممدوح، والابتداء به أولى، ثم بعده فيجب أن يقول: يا رجل، يا ليث، يا غمامة، يا بحر، يا حمام؛ لأن الليث أعظم من الرجل، والبحر أعظم من الغمامة، والحمام أعظم من البحر، وهذا مقام مدح فيجب أن يرقى فيه من منزلة حتى ينتهي إلى المنزلة العليا آخرا، ولو كان مقام ذم لعكس القضية. (ابن الأثير، 1985، ص: 171/2).

وفق الكلام السابق كان ينبغي على المتنبي أن يبدأ فيه بالصفة الأدنى فالأدنى، فإنه إذا فعل ذلك كان كالمرتفع من محل إلى محل أعلى منه، لأن المقام هنا هو مقام مدح. فالارتقاء كان يجب أن يكون من العظيم إلى الأعظم فيبدأ بنداء الممدوح بالبدر ثم الرجل تم الليث ثم الغمامة تم البحر وأخيرا الحمام وهو أعظم الصفات. وهذا هو الترتيب الأصح عند ابن الأثير.

ويظهر أن ابن الأثير تحامل في نقده للمتنبي ولهذا كانت للحسين ابن الحديد قراءة أخرى لهذا البيت أكثر قبولا وحسنا، وجب ذكرها في هذا المقام ملخصها أن المتنبي قصد مدحه بمعنين شريفين وهما السخاء والشجاعة، "فقال في القسم الأول وهو قسم السخاء يا بحر يا غمامة، وابتدأ بالبحر لأنه دون الغمامة مكانا؛ ثم قال في قسم الشجاعة: يا ليث الشري يا حمام، فابتدأ بالليث وانتقل إلى الحمام بعده، ثم ختم البيت بقوله يا رجل، أي أنت هذه الأشياء كلها، وأنت مع ذلك إنسان من البشر، وذلك أعجب وأطرف"(ابن معصوم، 1996، ص: 243/4).

إذ يمكن القول إن المتنبي جمع صفات الحسن والجود والسخاء في الشطر الأول فيقول أنت بدر في الحسن بحر في الجود سحاب في كثرة العطاء، وجمع صفات القوة والشجاعة في الشطر الثاني فيقول: أنت ليث في الشجاعة وموت للعدو، وحامل كل هذه الصفات رجل في الحقيقة يعني جمعت هذه الأوصاف وأنت رجل، وبهذا الاعتبار لا يوجد عيب في ترتيبه.

6.3. الالتفات:

الالتفات أول محاسن الكلام التي ذكرها ابن المعتز بعد فنون البديع الخمسة، وقال في تعريف الالتفات: "هو انصراف المتكلم عن المخاطبة الى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الالتفات الانصراف من معنى يكون فيه الى معنى آخر" (ابن المعتز، 1986، ص: 152).

والالتفات يأتي في الضمائر ولا يكون إلا لفائدة معنوية وخصائص بلاغية، جاء في تفسير الزمخشري: "الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم،...وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد." (الزمخشري، 1980، ص: 13/1).

أما ابن الأثير فقد توسع في مفهومه مثله مثل السكاكي وأدرجه في باب الخروج عن مقتضى الظاهر، فهم يدخلون في هذا الباب الانتقال من الضمير إلى الظاهر، والظاهر إلى الضمير، ومن إحدى صيغ الفعل: الماضي والمضارع إلى الأخرى وغير ذلك مما يعد من التحول الأسلوبي. (التفتازاني، 1999، ص: 272/1).

أما الشاهد الشعري للالتفات من الغيبة إلى الحاضر والذي مثل به في المثل السائر هو قول المتنبي في قصيدة يمدح به ابن العميد في النيروز، ومن عادة الفرس في ذلك اليوم حمل الهدايا إلى ملوكهم، فقال في آخر القصيدة: (ابن الأثير، 1985، ص: 142/2).

كَثُرَ الْفِكْرُ كَيْفَ نُهْدِي كَمَا أَهْـ ... ـدَتْ إِلَى رَبِّهَا الرَّئِيسِ عِبَادُهْ

وَالَّذِي عِنْدَنَا مِنَ الْمَالِ وَالْخَيْـ ... ـلِ فَمِنْهُ هِبَاتُهُ وَقِيَادُهْ

فَبَعَثْنَا بِأَرْبَعِينَ مِهَارًا ... كُلُّ مُهْرٍ مَيْدَانُهُ إِنْشَادُهْ

عَدَدٌ عِشْتَهُ يَرَى الْجِسْمَ فِيهِ ... أَرَبًا لَا يَرَاهُ فِيمَا يُزَادُهْ

فَارْتَبِطْهَا فَإِنَّ قَلْبًا نَمَاهَا ... مَرْبَطٌ تَسْبِقُ الْجِيَادَ جِيَادُهْ

وهذا من التفاتات أبي الطيب المعروفة وهي كثيرة في شعره خاصة في غرض المدح، وفي الأبيات السابقة رجع عن خطاب الغائب في قوله: قِيَادُهْ /إِنْشَادُهْ /يُزَادُهْ/ إلى مخاطبة الحاضر وهو الممدوح فقال بأسلوب إنشائي: فارتبطها أي: "فأرتبط ما قيدت فيك من هذه

البيوت النادرة، وما أتحفتك به من هذه البدائع الشاردة، فأن قلبا نماها وأظهرها وهداها وسيرها، مربط تسبق الجياد غرائب فكره، وتتقدمها بدائع لفظه"(ابن الإفليلي، 1999، ص: 95/2).

والأصل عند المدح ان ينشد الكلام موجها للممدوح مباشرة عن طريق الخطاب، إلا أن المتنبي "يبدأ المدح بالغيبة فيثني على الممدوح ويجري عليه الصفات العظام، حتى إذا بلغ من ذلك مبلغا يظن عنده أنه أحاط بصفة الممدوح، ونال رضاه ودنت منزلته منه، أقبل عليه وخاطبه بما يناسب المقام من أساليب الكلام، ومنها الأساليب الطلبية"(الميسري، 2019، ص: 3). وهذا أسلوب سار فيه المتنبي في أغلب شعره، غير أن ابن الأثير اكتفى بهذا المثال ولم يسهب في وصف محاسنه وفائدة الالتفات كما فعل بشاهد الالتفات عند أبي تمام.

4.خاتمة:

إن القارئ لكتاب المثل السائر سيلاحظ في نقده كثرة شواهد الشعراء المحدثين المتنبي والبحتري وأبي تمام، وكان هذا الأمر اختيارا منه وقد أشار إلى ذلك في مقدمته، والملاحظ أيضا ميل ابن الأثير لشعر أبي تمام وهو أمر يستطيع أي قارئ الانتباه إليه مما يجعل نقده ذاتيا في مواضع عديدة، فنراه يستحسن شعر لأبي تمام ويسوغ أخطاءه ويستهجن شواهد المتنبي والبحتري أحيانا أخرى لتقديم أبي تمام.

قدم ابن الأثير دراسة نقدية بآليات مختلفة منها البلاغة العربية ورصد المصطلحات البلاغية التي تخص الألفاظ والمعاني، وحدد مفهومها مستفيدا من الدراسات السابقة له كما جدد في تحديد مفهومها وأغراضها مثل مصطلح الالتفات والتجريد.

استطاع ابن الأثير تقديم جملة من المصطلحات البلاغية كالتجريد والإفراط والالتفات والتأويل....والتي طبقها على شعر المتنبي بأسلوب أدبي ماتع، حيث أظهر فيه الجانب الجمالي والجانب المعنوي لشعر المتنبي ثم اصدار أحكام نقدية باستحسانهما أو تصويبهما.

قائمة المراجع

- ابن أبي الحديد، عبد الحميد .*الفلك الدائر على المثل السائر* .تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن الأثير، ضياء الدين .(**1995**) .*المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر* .تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: المكتبة العصرية.
- ابن الإفليلي، محمد بن زكريا .(**1992**) .*شرح شعر المتنبي* .دراسة وتحقيق: مصطفى عليّان. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر .(**2001**) .*الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل* .تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار إحياء التراث الغربي، ط1.
- السبكي، بهاء الدين .(**2003**) .*عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح* .تحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت: المكتبة العصرية.
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف .*مفتاح العلوم* .بيروت: المكتبة العنصرية، 1419 هـ.
- الصفدي، صلاح الدين .(**2000**) .*الوافي بالوفيات* .تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث.

- القزويني، الخطيب .(**1998**) .*الإيضاح في علوم البلاغة* .تحقيق: بهيج غزاوي. بيروت: دار إحياء العلوم.
- القلقشندي، أحمد بن علي .*صبح الأعشى في صناعة الإنشاء* .بيروت: دار الكتب العلمية.
- المعتز بالله، عبد الله .(**1990**) .*البديع في البديع* .بيروت: دار الجيل.
- المعري، أبو العلاء .(**2008**) .*اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي* .تحقيق: محمد سعيد المولوي. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1.
- المراغي، أحمد مصطفى .(**1993**) .*علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)* .بيروت: دار الكتب العلمية، ط3.
- المتنبي، أبو الطيب .*ديوان أبي الطيب المتنبي* .تحقيق: عبد الوهاب عزام. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- الميسري، أحمد سالم .(**2019**) .*الالتفات في شعر المتنبي* .مجلة جامعة الأنبار للغات والآداب، العدد 30، كانون الأول.
- صوفية، محمد مصطفى .(**1994**) .*المباحث البيانية بين ابن الأثير والعلوي* .طرابلس/ليبيا: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1.
- العسكري، أبو هلال الحسن .*الصناعتين* (.هـ ١٤١٩) تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت المكتبة العنصرية –